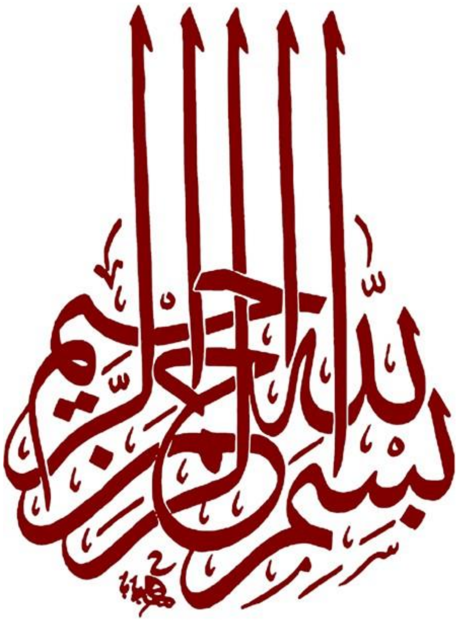
الْهِجْرَةُ إِلَى الْقُرْآنِ

مِنَ التَّعَرُّفِ إِلَى التَّخَلُّقِ

بِقَلَم

حميد الهلالى


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

بَيْنَ يَدَيِ الهِجْرَة

الحمد لله منزل الفرقان، تبصرة وذكرى لأولي النهى والعرفان، وصلواته وسلامه تترى على من خلقه القرآن، وعلى آله وصحبه ذوي التقى والإيمان، وتابعيهم بإحسان، وبعد:

هذه كلمات نفث بها الصدر، ورشح بها القلب، يستضيء بها الراغب في نزع سربال الغفلة عن قلبه، ليقبل النور الذي ملأ الأرض جلالا وعظمة، ويستعين بها المؤمنون على الأوبة إلى الكتاب المبين.

كليمات شرُفَتْ لأنها عن الهجرة المقدسة، والرحلة النورانية رحلة القرآن والإيمان.

ألا هل من مهاجر إلى القرآن؟ ألا من مهاجر إلى خلق من خلقه القرآن؟

أملي أن تكون هذه الورقات جسرا إلى الربانية.

أنت حسبنا ربنا ونعم الوكيل وما توفيقنا إلا بك..

دَافِعُ الْهِجرَة

في زحمة أمواج الفتن المتلاطمة، وتكالب الناس غنيِّهم وفقيرهم، شبابهم وشيبهم على الدنيا الفانية وزخرفها، وتنائيهم عن أنوار الوحي المتلألئة؛ يجد السالك إلى ربه نفسه في غربة موحشة، وذهول عظيم، ويقدر الله أن يصيبه لهيب أو شرارة من تلك الفتن، ويمسه طائف من شياطينها، فيتيه ويظلم قلبه، وترخي عليه الوحشة سدولها، ويمشي في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الردى ائتنا، فتتداركه رحمة الله التي وسعت كل شيء وينادي عليه القرآن: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

يفتح كتاب ربه، وينتقل بعين قلبه بين آيِه وسوره، فتفك أغلال القسوة والضيق عن صدره، وتنجلي غُمَمُ الغفلة عن بصيرته، وينذهل أمام حقائق الغفلة، والبعد التي لطالما رزح ويرزح فيها الكثير من العباد، ويعي أهمية الدعوة إلى القرآن، بعد أن ارتوت روحه بزُلال ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

تدِبُّ الحياة في القلب بعد أن لا مس سويداءَه غيث الفرقان، فتعلو الهمة، وتتوق إلى تسنُّم مقامات الخواص، وأهل الحضرة الرحمانية بعد الاستظلال ب: ﴿ بَلْ هُوَ آيَات بَيِّنَات فِي صُدُور الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم ﴾.

ما أعظم تلك الساعة التي ينبلج فيها فجر اليقين بصدق هذا الكتاب العظيم، والمعجزة الباهرة؛ ما أعظم تلك اللحظة التي تَعِب فيها القلب ونصَب من كثرة التنقل في سبل تَطَلُّبِ الراحة والطمأنينة، فإذا بالقرآن يهدي ويدل: ﴿ إنَّ هَذَا القرآن يهدي للَّتِي هِي أقْوَم﴾.

القلب المعمور بالقرآن وتعظيم القرآن لا يتطرق إليه شك ولا ريبة مهما عظمت اختراعات البشر وتقنياتهم، وقصورهم وأبنيتهم فـَ ﴿مافرَّطْنا في الكتابِ مِنْ شَيْء﴾.

المصطلِح مع القرآن لا ترعبه الآلام، والأدواء، والأسقام لأنه راسخ الإيمان، ثابت العقيدة بالقرآن ﴿قلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾، لا كلام أعجز من القرآن بلاغة وبيانا، وأسرارا وحِكمًا، يسره الله على العباد، وفتح

مغاليق فهمه على مصراعيها أمام الصادقين منهم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ من مدَّكرٍ﴾.

القرآن ترياق الصالحين، وملاذ الحائرين، والموفق السعيد من أقبل عليه بقلبه وعقله، وعمَّر ما بقي من عمره بالتبحر في أسراره، والارتواء من معين حياضه، والشقي المخذول الطريد من اتخذ هجران الفرقان خِدْناً، والإعراض عن نسماته ونوره ملجأ وحصنا.

مَعَانِي الهِجْرَةِ وأَحْوالُ الْمُهَاجِرِين

يطالع الكثير منا سير أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم بإحسان، فينذهل -وايم الله- من قوة اتصالهم بكتاب الله جل وعلا، ويتساءل: كيف تيسر لهؤلاء البشر تحصيل هذه المقامات العلية والمراتب الزكية؟؟

الجواب قد يبدو بسيطا وبد هيا: إنهم هاجروا إلى القرآن، وعرفوا الطريق إلى القرآن.

عرفوا السبيل إلى القرآن حين تحققت قلوبهم بعظمته، وأنه الفصل ليس بالهزل، وهو كلام رب العالمين.

هاجروا إلى القرآن لما رباهم سيد ولد آدم، بأبي هو وروحي ﷺ ، على السمع والطاعة لأوامر القرآن. وتحليل حلاله وتحريم حرامه.

يجد المهاجر إلى القرآن نفسه أمام جيل قرآني فريد، جيل كانوا رجالا بالقرآن، لم تلههم تجارة ولا بيع عن القرآن، صدقوا ما عاهدوا الله عليه

بالقرآن، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر بالقرآن، تفطرت أقدامهم من القيام بالقرآن، وخشعت جوارحهم، وعمشت أبصارهم بالقرآن.

جيل حديثهم القرآن، وحركاتهم وسكناتهم بالقرآن وفي القرآن وللقرآن.

والسؤال الملح: كيف نهاجر ونعرف الطريق إلى القرآن، كما هاجروا وعرفوا؟؟

لا شك إن الإجابة عنه شاقة ومجهدة للعقل والروح، وذلك الإجهاد مرده إلى أن القول والتخطيط والتنظير يحسنه غالب الناس، والقول يحتاج إلى تجميله بحسن العمل، وظلُّ العمل المجاهدة وشدة البلاء والمحن، وهو الفيصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين في قلوبهم مرض.

الهجرة إلى القرآن أحبتي تحتاج فطرة مصفاة منقاة من درن جاهلية المادة، وجاهلية الكبر، وجاهلية النفاق، وجاهلية حب الرياسة والجاه، وجاهلية

النفس الأمارة بالسوء، وجاهلية اتباع الهوى، وجاهلية عبادة الله بالهوى، هي جاهليات كثيرة، وبقدر تكسيرها تهون الهجرة إلى القرآن.

الهجرة إلى القرآن تحتاج إلى قلب معمور بالتوحيد النقي الصافي العملي لا المتون المحفوظة والمناظرات والجدالات السامجة العقيمة. التوحيد الذي لا تقلب صفحة من صفحات كتاب الله إلا وجدتها داعية إليه.

الطريق إلى القرآن تحتاج إلى إعداد العدة والتزود بزاد التوبة المتجددة والاستغفار المتواصل، والمحاسبة الشديدة للنفس؛ التوبة من تعظيمنا المجمل لكتاب الله، ومن تقصيرنا في تلاوته وتدبره.

الهجرة إلى القرآن بدايتها أشواك وأودية وجبال شاهقات وعرة، لكن نهايتها نور عظيم يسري في القلب ويعرج بالروح إلى الحضرة الرحمانية ويصلها بالذي على العرش استوى. نور يبصر به السالك كل شيء على حقيقته، نور يعيش به جنة الدنيا.

الهجرة إلى القرآن أحبتي لا تتحقق إلا بجعل هذا الكتاب هم الهموم، وآكد المهمات، ورأس المشاريع، وأنه لا غنى للعبد عنه ألبتة .

المهاجر إلى القرآن لابد له من اجتياز مراحل ثلاثة:

- مرحلة التعرف على القرآن: وسهولة تجاوزها تكون بقدر استعداد القلب لتحمل مسؤولية القرآن، وأهم ركائزها الوصول بالقلب إلى إدراك حقيقة كلام الله، في إعجازه وعظمته، وأنه كلام رب واحد عظيم جبار خالق متصف بصفات الكمال كلها. كلام تقشعر له الجلود وتخر له الجبال وتنهد وتتصدع؛ وكلما استغرق فكره هذه المعاني أحس بسكينة تسري في قلبه، وأحس بأن ذرات جسمه كلها تتمنى لو تعمل بهذا القرآن.

- مرحلة عمل ومكابدة ومجاهدة بغية الثبات على طريق القرآن: هذه المرحلة يحتاج فيها القرآني الرباني إلى تعاني الحفظ وكثرة التلاوة والتدبر، والتهجد والمراجعة والتعاهد؛ كذلك النظر في أخلاق أهل القرآن، وسيرهم والتخلص من أضدادها كالسفه والجهل.. طول هذه المرحلة يختلف من عبد إلى عبد، وهذا الاختلاف راجع إلى درجة امتيازهم في اجتياز المرحلة الأولى.

هذه المرحلة هي العمود الفقري وأس سفر الهجرة إلى القرآن، لأن النجاح في اجتيازها يعني مسايرة موكب الأسلاف الصالحين في علاقتهم بكلام الله تقدس وتبارك.

- مرحلة التخلق بالقرآن: هي غاية الغايات ونهاية النهايات، وهي حلم الربانيين أهل الله وخاصته الذين اختلط حبهم للقرآن بدمائهم، مرحلة ثبات القدم على حب الفرقان، مرحلة لا يكاد يميل فيها القلب إلى الأغيار الملهية عن القرآن.

إنها مرحلة القرآن الذي يمشي على الأرض، ولا تنازل فيها عن أوراد أهمها: كثرة التلاوة+ ورد التدبر+ التهجد بالليل+ الحفظ والمذاكرة، ثم العمل وتنزيل الآيات على الواقع وتحكيمها في كل شيء، ثم لابد من الإشارة إلى مسألة مهمة وهي التخفيف من الذنوب والشعور بأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وما أقر عين صاحب هذا المقام بخاتمة حسنة.

التَّعَرُّفُ عَلَى الْقُرْآن

1. معنى التعرف على القرآن

أسلفنا الذكر بأن أول مراحل الهجرة إلى القرآن هي مرحلة التعرف على القرآن، إنها مرحلة رفع الغبش والعمش عن القلب لإبصار نور القرآن وإدراك عظمته وجلالة قدره.

غالب المسلمين اليوم إلا من رحم الله مؤمنون بكلام الله ككتاب منزل على محمد ﷺ، يتلى في المناسبات، وتُزين به رفوف المساجد، وتُعْقَدُ لَهُ المسابقات، لكن القلة القليلة من هؤلاء المسلمين تلك التي آمنت بهذا الكتاب الجليل من حيث هو نور ، وهدى، وفرقان، وشفاء، وموعظة للمؤمنين ، وكتاب هادٍ للتي هي أقوم..

إن التعرف على القرآن مرحلة من الأهمية بمكان، لأنها تفتح أمام الروح آفاقا فسيحة لشهود عظمة هذا النور الرحماني، واستمداد القلب من شعاعاته، وإدراك هذه العظمة -بلا ريب-قائد اضطرارا إلى معرفة قدر المتكلم بالقرآن وتقدست أسماؤه.

التعرف على القرآن خطوة مصيرية يكابد فيها العبد آلام قلع جذور الغفلة عن القرآن من قلبه، ويصابر فيها لهيب تصدُّع جنانه بتجليات الفرقان؛ مرحلة يقرر فيها العبد التجرُّد من هوى النفس، والميل إلى الأغيار، وزخرف الدنيا، ويؤسس فيها بنيان قلبه على تقوى من الله ورضوان.

مرحلة التعرف على القرآن شعارها الانتقال من التعظيم المجملِ لكتاب الله إلى التعظيم المفصل له، ومن حال التقديس العامي المغروس في الفطرة المسلمة، إلى حال التقديس الخاص الذي ربى عليه رسول الله ﷺ أصحابه فكانوا بحق جيلا قرآنيا فريدا، وقادوا الأمم.

ولمزيد تفهيم لقضية التعظيم المفصل والخاص لكتاب الله سنمثل للقارئ الكريم بهذا المثال: لو سئل أحد المسلمين من أهل السنة والجماعة عن الإمام أحمد لوُجِدَ أنه يعظمه، ويكن له المحبة والتقدير لأنه ربما طرق سمعه يوما شيء من قصة خلق القرآن لاستفاضتها وشهرته بها، واقتران اسمه بها؛ ولكن لو قدر الله وطالع هذا المسؤول سيرة هذا الإمام في كتب التراجم المعروفة، وأحاط بتفاصيل حياته وجهاده وربانيته، فستتغير الصورة

المرسومة في ذهنه عن الإمام وسيزداد تعظيمه وإجلاله له؛ بل سينتقل من مرحلة التعظيم إلى مرحلة الاقتداء ؛ وسيقوى إقباله على الله بسبب ما غرسته سيرة هذا الإمام في قلبه من العبر والعظات، سيصير سيرته نبراسا يسير عليه، وأسوة يتأسى بها.

فما بالك حبيبي في الله لو عومل كتاب الله بنفس الطريقة وفُرِّغ له القلب والفكر، وتُدبِّرت آياته، وامتُقِلَ في أسراره وكشْف حقائقه؟ لا شك أن النظرة إلى القرآن ستتغير من نظرة تعظيمية سطحية إلى نظرة منهاجية تمثُّلية لأخلاقه وأحكامه، ولاستحضر المسلم عظمة هذا الكتاب كلما همَّ بقراءته، أو نظر إليه أو استمع إليه، بل سيستغرق حب هذا الكتاب العظيم قلبه، ولن يرضى منه بالقليل، لأنه صار حياة قلبه، ونور فؤاده، وشفاء أسقامه، ورواء ظمئه.

لقد آن الأوان أحبتي لنُقْبل على القرآن، ونُشَمِّر عن ساعد الجد طمعا في التعرف عليه لتفتح لنا مغاليق التدبر، وتهون علينا عقبات طريق السير إلى الله، فلا يصح سير من لم يعظم حظه من هذا التنزيل الحكيم.

2. خطوات عملية للتعرف على القرآن

الدعاء الصالح:

أول خطوات التعرف على القرآن هو الإكثار من الدعاء والإلحاح على الله بأن ييسر لك سلوك طريق أهل القرآن، فتتحرى مواطن الإجابة كالسجود وساعة الجمعة وعند نزول المطر ودعاء الوالدين مع لزوم آداب الدعاء؛ ومن أدام الطرق يفتح له وعليه.

النظر في سير أهل القرآن:

مما ينمي المعرفة بالقرآن وتعظيمه في القلب مداومة النظر في سير أهل الله وخاصته، ومحاولة سلوك طريقهم في مكابدة العيش مع التنزيل، بالإضافة إلى كتب أخلاق أهل القرآن كالتبيان للنووي رحمه الله، وأخلاق أهل القرآن للآجري ورحمه الله، ومقدمات تفاسير العلماء الصالحين، وشروح كتب السنة لا سيما الأبواب التي تناول موضوع القرآن والعمل به وسبل الانتفاع به، وبعض الرسائل النافعة كالطريق إلى القرآن لإبراهيم السكران فك الله قيده؛ وكتب الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله وينصح

بالتسجيل في منتديات نافعة كملتقى أهل التفسير ومنتدى الفطرية، والألوكة، وملتقى أهل الحديث، وزيارة المواقع القرآنية كموقع تدبر، ومركز تفسير، وغيرها من الملتقيات النافعة، والتركيز على المواضيع التي تتعلق بالقرآن، وكيفية تدبره والتأثر به والعمل به.

سماع حديث أهل القرآن عن القرآن:

مما يرسخ حب القرآن في القلب وينمي الاهتمام به الاستماع إلى محاضرات العلماء الربانيين الصادقين الذي رباهم القرآن، وخبروا طريق القرآن، كمحاضرات الشيخ العلامة مصطفى البيحياوي، ومن تيسر له حضور مجالسه التفسيرية النورانية فنعما ذلك، والدكتور فريد الأنصاري رحمه الله، والشاهد البوشيخي، والعلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي، والشيخ الشعراوي، ومحمد راتب النابلسي، وفضيلة الشيخ محمد الدبيسي، ومحاضرات الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي القرآنية، وكل مهتم بتدبر القرآن والتربية القرآنية بغض النظر عن شهرته من الصادقين نحسبهم كذلك ولا نزكيهم على الله، إنما مثلت ولم أقصد الحصر.

عبادة الخلوة بالقرآن:

الاختلاء بالله جل وعز وتدبر كلامه بالليل سيما أهل الصدق والعرفان الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ومن أعظم ما يحبب القرن إلى القلوب القيام به في الليل، والاختلاء بالحبيب، ولا أنفع للمهاجر إلى القرآن ولا آنس له في هجرته من مناجاة الرب تقدس وتبارك بكلامه.

مجالس التدارس والتدبر:

غشيان حلق القرآن ومجالس القرآن، ومدارسته وحفظه على الأقل مرة في الأسبوع، من فرائض الهجرة إلى القرآن، ومصاديق هذا الكلام أكثر من تحصر.

سماع القرآن:

من لوازم الهجرة تشنيف السمع بترانيم آيات القرآن، لاسيما من القراء المتقنين الأمناء على أحرفه وقواعد القراءة والضبط، ومما ينبغي التنبيه عليه أن المهاجر إلى القرآن لا يجعل من تحسين الصوت بالقرآن والتغني به غاية في نفسها، إنما هي طريق إلى ترقيق القلب به، والاتعاظ بمواعظه.

حفظ القرآن:

التخطيط لحفظ القرآن بوضع برنامج ميسر لا تمل منه النفس ولا تفتر، فلا يختلف مهاجر إلى القرآن في أهمية الحفظ، فحيثما رغب في القراءة قرأ، ومتى ما داهمته الوحشة رنم ورتل، وتزداد أهمية الحفظ للتهجد بالليل، فقراءة الحفظ فيه آكد وأنفع.

ورد التلاوة:

أن تجعل في حيز المستحيلات أن يمر عليك نهارك دون النظر في كتاب الله وتلاوة ما تيسر منه، وكم مشين ومستقبح من مهاجر إلى القرآن، أن يستصعب ويستثقل تلاوة صفحات من كتاب ربه يوميا.

الرفيق قبل الطريق:

لا خلاف في أن الصحبة في الهجرة آنس وأروح للقلب وأشحذ للهمة وأدعى للوصول، لذا يلزم المهاجر إلى القرآن اتخاذ صفوة من الصحاب والخلان يتعاون معهم على حب القرآن والعمل به والتخلق بأخلاقه،

ويحرص على الاجتماع بهم لتدارس القرآن، وتدبره ومذاكرته، وتعلم أحكامه وحفظه.

عائق الذنب:

الذنب للمهاجر إلى القرآن من مثبطات السير التي لابد من الحرص على التحرز منها قدر الوسع، وكلما استشعر مسؤولية الانخراط في صف أهل القرآن، وأنه حجة للعبد أو عليه، ازداد نفوره من المعصية وما يذكر بها، ولا أنفع للمهاجر من توالي أوراد الاستغفار وتجديد التوبة.

عائق المراء:

المهاجر إلى الله عين قلبه على الوصول، ولا تردد ولا تنقل ولا سبهللة ولا انتقال، فلا وقت للجدال والمراء، ولا جهد لائق استنزافه في المهاترات والخصومات، فسمو المقصد كابح جماح نفسه، ولاجم لفلتات لسانه، ولا كلام إلا عن الهجرة إلى القرآن والعيش في أحضان مدرسة القرآن، والجدال هادم مهلك.

الْمُجَاهَدَةُ والمُكَابَدَة

بعد أن يتعرف المهاجر إلى القرآن على حقيقة القرآن وعظمته، وعلو قدر المتكلم به جل في علاه، يكون القلب في أهبة الاستعداد وفي حالة تهيؤ تام للدخول في مكابدات آي القرآن، ويُضمن اجتياز هذه المرحلة المصيرية بجملة من الأوراد والعبادات نجمل ذكرها كما يلي:

1. تجديد النية:

بشكل مستمر وتجريدها لله كلما أحس المهاجر أنها مدخولة وأن شيئا من الرياء قد تطرق إلى قلبه، فلا يقبل الله عز وجل ولا يبارك عملا فيه نصيب لغيره، وإنما بلغ من بلغ بتصحيح القصد وتجريد النية لله عز وجل.

2. مجاهدة النفس:

فالنفس تحتاج جهادا عظيما للإقبال على القرآن، وبالمقابل هي سهلة القود والطوع لاسيما إذا داوم المهاجر على أوراد القيام بالليل خاصة ،(بحيث يبدأ بختم القرآن في الليل كل شهرين مرة ثم يتدرج)، ولا ينبغي التفريط في الذكر المطلق عموما، ففي بدايات الهجرة يعيش قلب المهاجر أحوالا، مثلها

مثل احمرار الوجه عند الغضب فسرعان ما يزول، وشحوبه عند الفزع يختفي إذا زال الداعي، ولا تظهر فائدة هذه الأحوال إلا إذا صارت ملكات وهيئات راسخة في النفس، والسبيل إلى ذلك يكون بالمواظبة والمداومة، ولا يُضعف هذه الملكات إلى الأمراض القلبية الفتاكة كالالتفات إلى غير الله، والنظر إلى الصور المحرمة، والكبر والرياء والعجب، وما يتصل لذلك بسبب من الأسباب.

ولا بد من دوام تجديد مشارطة النفس على الاجتهاد في القيام بالأوراد القرآنية على أحسن وجه.

3. التدرب عل منهج التلقي:

منهج التلقي هو المنهج الذي صنع ذلك الجيل القرآني الفريد، ومعناه أن يستشعر المهاجر إلى القرآن أنه يعيش حالة تنزل آيات الكتاب على رسول الله ﷺ ، ولخصه الشيخ الأنصاري رحمه الله بقوله: "والتلقي هنا تلق خاص، المراد به استقبال قلبي للوحي على أنه الذكر،﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾(المزمل : 17). فالمتدارسون للقرآن في مجالس المدارسة ينبغي

أن يتلقوه وكأنه يتنزل عليهم في تلك اللحظات غضا طريا، إنه تلق بالقلب والعقل لكلام الحق سبحانه وتعالى وشعور جارف بأنه يخاطبهم[1] "

4. مكابدة التعلم والحفظ

تعلم أحكام التلاوة مع الإلمام بشيء من علم القراءات من فرائض مرحلة المكابدة، فلا يحسن بمن انتسب إلى القرآن والمهاجرين إلى عالمه الفسيح ألا تُقام ألسنتهم بحسن الترتيل والتجويد، والحد الأدنى في هذا الباب، تحصيل ما به يتجنب اللحن الجلي والخفي، ولا يضر تخلف حسن الصوت، فذلك مرده إلى الهبات الربانية، والغنى في الرضى بالمقسوم، وإن كان خير الناس من جمع الله له بين حضور القلب، وحسن الصوت، والتدبر.

يضاف إلى تعلم أحكام التلاوة التدرج في حفظ كتاب الله عز وجل حفظا متقنا، وأفضل أحوال الحفظ أن يكون على شيخ رباني، يحبب إليه القرآن بحاله قبل مقامه، فيستظهر عليه ما يحفظه دون استعجال، ويوثق عليه

---

[1] ينظر كتاب مجالس القرن للدكتور فريد الأنصاري

حفظه، ويجمل أن يكون ذلك المعلم أو الشيخ مجازا في الرواية التي يحفظ بها المهاجر.

5. القراءة التدبرية:

مما لا يخطئه عين الناظر في كتاب الله عز وجل أن الأمر بتلاوته للتدبر لا لمجرد التلاوة، فبالتدبر يحصل التالي فائدة التلاوة، وبه يحصل القلب الزاد الإيماني، والأهم في ذلك كله هو أن التدبر هو الطريق إلا الغاية العظمى التي لأجلها أوحي بالقرآن على رسول الله ﷺ وهي العمل بالقرآن، وتنوير بصائر البشرية به.

والكلام على مسألة التدبر لابد فيها من ذكر سيد المتدبرين ﷺ ومن تلقوا هذا العلم عنه، ومحاولة السير على نهجهم لتحصيل المقصود، فالنبي ﷺ عليه وسلم كان يكابد أنوار وأسرار الآية الواحدة في الليل يرددها إلى الفجر، وما ذلك إلا لعمق تدبره واستغراق قلبه في بركاتها، وعلى طريقته سار الصديق الأسيف رضي الله عنه، وكان الفاروق رضوان الله عليه يبقى في السورة الواحدة يتدبرها ويتأمل معانيها ومقاصدها سنين عددا؛ومن عجيب ما ثبت

عن الأسلاف أن الواحد يمضي حياته كلها في رحلة التدبر ولم يكمل ختمة واحدة، وذلك لأن القرآن معين لا ينضب، وعين متفجرة، وعجائبه لا تنقضي؛ فالقصد إذن أن المهاجر إلى القرآن لابد أن يكون شغله الشاغل تدبر آي القرآن، لا نثره نثر البقل، لأن التدبر كما تقدم هو الجسر إلى العمل والتخلق.

التدبر لكتاب الله جل وعلا هو البذرة، والثمرة هي حصول التذكر، وهي تلك الغاية التي ينبغي أن يشمر لها المشتغل بكتاب الله تعالى، لابد من حصول التذكر لمن أراد قوة الإيمان والنجاح في عملية التدبر...﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون.نعم كما أن العبد لما يدعو الله تعالى يحس أنه يخاطبه ويسمعه لأن الله محيط بكل شيء علما، سميع بصير ؛ كذلك ينبغي استحضار أن الله يخاطبك أنت وأنا وغيرنا بكلامه ، فالقرآن خطاب لكل العباد فهل من ملق للسمع وهو شهيد؟

تحصيل الربانية بالرجوع إلى القرآن تكون أيضا بالمرابطة في بيوت الله جل وعلا لتعلم كتابه وتدبره، فما أنشئت المساجد ولا جعلت إلا لهذه الغاية الجليلة غاية تدبر القرآن وتكوين الربانيين.

الْعَمَلُ والتَّخَلُّق

بعد أن عاش المهاجر مع القرآن، وكابد حفظ آياته، وقوَّم لسانه بتعلم أحكام تلاوته وتجويده، وجالس الأصفياء لمدارسته وتدبره، وأضاء الليالي الطوال بالتهجد بسوره، جاءت المرحلة المهمة، مرحلة قطاف الثمرة، وحصد الزرع، وكلما كانت المكابدات على أشدها، كانت عملية التخلق بالقرآن والعمل به أيسر وأبرك.

إن المقصود الأسنى من القرآن الكريم هو العمل به، لأنه كتاب هداية وإرشاد، وما المراحل التي سلف الحديث عنها إلا بُلْغَةٌ إلى هذه المرحلة السامقة، وما وُسِمت هذه الرحلة ب"**الهجرة إلى القرآن**" إلا لأنها انتقال من حال التعرف إلى حال العمل والتخلق، ومن رتبة الأحوال إلى رتبة الملكات.

لابد أن يكون هدف المهاجر في هذه المرحلة تحصيل مقام القرآن الذي يمشي على الأرض، وليس المقصود من ذلك بلوغ الكمال إذ هو مقام خُص به النبي ﷺ ، وليس لأحد من البشر أن يصله، إنما المرمى الاقتداء والأسوة.

إن القرآن الكريم هو كتاب الحياة البشرية، فمن رام أن تطيب حياته فلا سبيل إلا العمل به، فليكن القصد إذن من التلاوة والتدبر، والعمل بهذا الكتاب العظيم تهذيب اللسان، وتهذيب الجنان، وتهذيب الأركان،

إن الهجرة إلى القرآن تتوخى الإصلاح الفردي والأسري والمجتمعي، تتوخى إصلاح الحياة بعد إفسادها.

لا يخفى على المتأمل أن صلاح المجتمع والفرد لا يمكن إلا بإصلاح النفس، لهذا أولى لها القرآن نصيبا عظيما من الأهمية، وقد عبر القرآن بالإحياء ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ فالقرآن محي للنفس الميتة، وموقظ للراقدة الغافلة، وفي أدران المعاصي وأوحالها الآسنة غارقة.

دعا القرآن الناس إلى الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ لما فيه حياتهم، وهذا الذي فيه حياتهم هو إفراد الله تعالى بالتوحيد ورسوله بالاتباع.

مرحلة كان خلقه القرآن معناها استيعاب كون القرآن أعمق النظريات التربوية والأخلاقية، فما من خير إلا أرشد إليه جملة وتفصيلا، وما من شر إلا حذر منه، وبغض فيه ونبه على أضراره على كافة المستويات والأصعدة.

العمل بالقرآن يكون بتصحيح التوحيد والأخلاق اللذان إذ هما وجهان لعملة واحدة، فكلما عظم التوحيد في القلب، ورسخت فيه معانيه، رقت الأخلاق وحسنت، وكان صاحبها في أشرف المنازل في الدنيا والآخرة، فرسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، هو نفسه الذي حصر بعثته في إتمام مكارم الأخلاق، إذن فالتوحيد في الحقيقة هو الأخلاق والأخلاق هي التوحيد.

العمل بالقرآن منهج في تصحيح الأخلاق ارتقائي تدريجي، فلقد ابتدأ رسول الله ﷺ بإصلاح الأفكار والاعتقادات، واستغرق منه ذلك وقتا طويلا، ثم ثنى بتزكية القلوب وتهذيب السلوك، لماذا؟ لأن الأخلاق الحسنة لا يتيسر تصور حسنها مع فساد في الفكر والمعتقدات، وتحصل بهذا أن كل خلق حسن وراءه فكر صحيح وسوي، والنسق الفكري الصحيح هو أساس كل خلق حسن.

خِتَامُ الهِجْرَة

ما أعظم الشوق إلى القرآن! وما أعذب الرجوع إلى القرآن وأخذه بقوة.

إن القلب النائي عن القرآن أرض جرداء مقفرة ، ودهليز مظلمة، وخراب في خراب..

الاصطلاح مع كتاب الله جل وعلا معناه استشعار استحالة العيش والحياة من دون أنواره، وَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

إنه الترياق لسموم الغفلة والحيرة ، إنه النور الذي يبدد كل ظلمة، إنه الفرقان الذي تزول به الأباطيل، وتسطع به أنوار الحقائق...

لا راحة مع البعد عنه، ولا طمأنينة مع التجافي عنه، لا خير في غير ورود حياضه العذبة..

أُخيَّ تمسكْ بنور الهدى**** وأدمن تدبر آي الكتابْ

فأنت بغير الْكتاب العزيز*** تتِيهُ ويغشاكَ كل عذابْ

سربال الغفلة، وغياهيب ظلمتها، وقسوة القلب وضيق الصدر، لا تنقشع سحبها إلا بتَرداد آي الكتاب.

فاللهم خذ بنواصينا إلى البر والتقوى، وعلق قلوبنا بنور التنزيل، أنت حسبنا ونعم الوكيل، إليك أنبنا ، وإليك المصير..